

دلائل الإعجاز

مُختلفة وأهواءٍ مُتعدية تَرى كُلاًّ منهم - لحُبِّهِ نفسهُ وإيثاره - أن يدفعَ
النِّقْصَ عنها - يقدِّمُ ما يُحسِنُ من أنواعِ العلمِ على ما لا يُحسِنُ . ويحاولُ
الرَّايةَ على الذي لم يحظَ به والطَّعنَ على أهلهِ والغَضَّ منهم . ثم تتفاوتُ
أحوالُهم في ذلك : فمن مغمورٍ قد استهلكه هَوَاهُ وبَعْدُ في الجَوْرِ مَدَاهُ ومن
مُترجِّحٍ فيه بينَ الإِصافِ والطُّلْمِ يجورُ تارةً ويعدلُ أخرى في الحُكْمِ . فأما مَنْ
يَخْلُصُ في هذا المعنى من الحَيفِ حتَّى لا يقضيَ إلا بالعدلِ وحتى يصدُرَ في كلِّ أمرٍه
عنِ العقلِ فكالشَّيءِ الممتنعِ وجودُهُ . ولم يكنْ ذلكَ كذلكَ إلا لشرفِ العلمِ وجليهِ
مَحَلِّهِ وأنَّ محبَّتَه مركوزةٌ في الطَّابَعِ ومركَّبةٌ في الذِّفُوسِ وأنَّ الغَيرةَ عليه
لازمةٌ للجَبِلَّةِ وموضوعةٌ في الفِطْرةِ وأنَّه لا عيبَ أعيبُ عندَ الجميعِ مِنْ عَدَمِهِ ولا
ضَعْفَ أضعُ من الخُلُوِّ عنه فلم يُعاد إذاً إلا من فَرَطَ المحبةَ ولم يُسمحَ به إلا
لشدَّةِ الضَّغْنِ .

ثم إنَّكَ لا تَرى عِلْماً هو أرسخُ أصلاً وأَـبْسَقُ فَرَعاً وأَـحْلَى جَنَدَى وأَعْدَبُ وَرداً
وأَكْرَمُ نَتَاجاً وأنورُ سراجاً مِنْ علمِ البَيانِ الذي لولاه لم تَرَ لساناً يحدِّثُ الوَشيَّ
ويصوغُ الحَلَّيَّ ويلفُظُ الدُّرَّ وينفِثُ السَّحَرَ ويقري الشَّهْدَ ويُرِيكَ بدائعَ
مِنَ الزَّهرِ ويُجْنِيكَ الحلوَ اليانعَ مِنَ الثَّمَرِ . والذي لولا تحفَّيهِ بالعلومِ
وعنايَتُهُ بها